مشكلة المصير في معلّقة طرفة بن العبد

أ. حديدان نادية
جامعة تبسة

ملخّص :

لقد كان الشاعر الجاهلي مشغولا بالمصير، والقدر، وغربته في الحياة، ومن هنا جاء شعره يمثل الإنسان، وهو يعاني من وحدته في الكون دون إيمان بعقيدة دينية تشدّ من أزره إبّان حياته، أو تعطيه الأمل في حياة أخرى تحمل له العزاء والأمل وربّما أضافوا إلى غياب العقيدة، عامل الطبيعة التي كانوا يعيشونها على ما هي عليه من قسوة، وعلى نظام اقتصادي لا يقلّ عن الطبيعة في قسوتها، ونمط من الحياة الاجتماعية، يعتمد على وحدة القبيلة، وما يحمل هذا النمط الاجتماعي في داخله من عناصر الشقاق والتناحر، ربما أضافوا كلّ ذلك للدلالة على دوام خطر الموت واحتمال حدوثه بين لحظة وأخرى.

Résumé :

Le poète préislamique était beaucoup plus préoccupé par sa destinée et sa vie en exil. Aussi, sa poésie présente l'homme comme étant une personne qui souffre de sa solitude dans cet univers, sans toutefois croire en aucune foi religieuse qui puisse la soulager dans sa vie ou lui donner de l'espoir et le consoler dans l'autre vie après sa mort.

En plus de cette absence de foi, il faut tenir compte de la nature de la vie difficile et cruelle qu'il subissait, d'un environnement économique autant cruel dans lequel il vivait et d'un style de vie très rigoureux.

Il comptait et dépendait de l'unité de tribu dans laquelle il vivait avec tous éléments de division et de rivalité qu'elle comptait, à laquelle il faut ajouter le risque permanent des dangers et la probabilité de mourir à chaque instant.

حين امتدّ نظر الجاهلي رأى هاوية العدم التي ستنتهي إليها حياته فأحسّ بالقلق وسئم هذه الحياة، وقد عزّ على هؤلاء أن يستسلموا للموت، فكان شعرهم يسجّل هذا الإحساس الرّهيب العميق بالفناء، وهو إحساس يفوق إحساس غيرهم من الشعوب ولعلّ من أهم الأسباب الداعية إلى ذلك قُرب هؤلاء من الطبيعة فلم يكن بينهم وبينها أي فاصل، ثم إنّ هذه الطبيعة كانت قاسية، وكثيرا ما أذاقتهم ألوانا من العذاب مما جعلهم يحسّون بالموت في كلّ حين، يقول عمر الطّالب:« كان لقسوة البيئة الصحراوية، ونضوب مصادر العيش فيها وقلّة مواردها الاقتصادية تأثير كبير على إحساسهم بالموت، فهم يتوقّعونه دائما إذا ما حيل بينهم وبين الحصول على هذه الموارد »1.

والنظام الاجتماعي كان يلقي إلى الفرد بالموت، فسلسلة الحروب التي كانت تقام بين القبائل كفيلة بأن تفقد المرء عمره.

والقصص المتواترة عن العصر الجاهلي تحكي لنا عن كثرة القتل لأسباب قد تكون تافهة، فحادث قتل قد يؤدّي إلى تهديد قبيلة القاتل والقتيل معاً، وهذا ما جعل الإنسان الجاهلي لا ينظر إلى موت الآخرين على أنّه حالة فردية لا تهمّه، بل كان يرى أنّ موت الآخرين يمسّه مسّاً مباشراً، بل هو جزء من هلاكه، ولذلك راعه موت الآخرين فظهر موضوع خاص بذلك هو موضوع الرّثاء الذي كان الفرد خلاله يرثي الميت ويرثي نفسه أيضا.

يقول محمّد النويهي:«أحسّ الجاهليون إحساساً قوياً بالموت، وحتم وقوعه ورأوا رأي العين تلاعب القدر بهم، وتغلّب صروفه عليهم، في هذه الحياة المحدودة الفانية، صحيح أنّ غيرهم من الشعوب في مختلف الأزمان والبيئات أدركوا هاتين الحقيقتين فأثّرتا فيهم، لكن إحساس الجاهليين بها كان زائد الحدّ يبالغ درجة العنف وذلك لقسوة الطبيعة عليهم قسوة نادرة النظير واضطراب نظامهم الاقتصادي الذي يعتمد على المطر القليل النزول في مناخهم الصحراوي، وقيام مجتمعهم على وحدة القبيلة المنفصلة، وتنافر القبائل في سبيل الاستيلاء على الماء النزر والمرعى السريع»2.

لقد كان الشاعر الجاهلي مشغولا بالمصير، والقدر، وغربته في الحياة، ومن هنا جاء شعره يمثل الإنسان، وهو يعاني من وحدته في الكون دون إيمان بعقيدة دينية تشدّ من أزره إبّان حياته، أو تعطيه الأمل في حياة أخرى تحمل له العزاء والأمل وربّما أضافوا إلى غياب العقيدة، عامل الطبيعة التي كانوا يعيشونها على ما هي عليه من قسوة، وعلى نظام اقتصادي لا يقلّ عن الطبيعة في قسوتها، ونمط من الحياة الاجتماعية، يعتمد على وحدة القبيلة، وما يحمل هذا النمط الاجتماعي في داخله من عناصر الشقاق والتناحر، ربما أضافوا كلّ ذلك للدلالة على دوام خطر الموت واحتمال حدوثه بين لحظة وأخرى.

وعلى كلّ فالشواهد الكثيرة التي يزخر بها الشعر الجاهلي تكشف للباحث على الدوام عن الكيفية التي أدرك الشاعر بها واقعة الموت، وكيف انعكس هذا الإدراك لديه، فكان توتره الدائم حيال هذه الواقعة، وكان تناوله لها على اختلاف في هذا التناول.

إنّ طرفة بن العبد من الشعراء الذين شغلتهم فكرة مصير الإنسان ومنتهاه فأدرك –كغيره من الشعراء – أنّ وجوده مخاطرة، وأنّ الموت تيّار خطير، وقد دفعه إحساسه بالفناء، والنهاية إلى أن يعيش حياة متأزّمة، ولعلّه حاول الخلاص من هذه الأزمة بالتماسه اللذّة، لذلك صوّر الشاعر حيرته فعبّر عن هذا القلق المخيف الذي سيقوده في يوم ما إلى مصيره المحتوم مهما طال به الزمن.

فعبّر عن ذلك بقوله:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلةٍ وما تنقُص الأيّام والدّهر ينفدِ3

وهي صورة تبيّن مدى القلق الذي يعيشه، أي أنّ كل نفس لابدّ لها من ورود الموت فإن لم تمت في يومها ستموت في غدها، وإنّ تأخّر هذا الغد فهو قريب كقرب اليوم من غد، وهكذا فإنّ الشاعر يعيش حاضره في قلق لأنّه يفكّر دائماً بأنّه سيفارق هذه الحياة دون التروّي من متعها، أو أنّ هناك مانعاً يقف دون تحقيق مطلب المتعة –الذي يسعى إليه– ولا يمكن تجاهله وهو الموت. فطرفة يصف البقاء بأنّه كنز ينقص كلّ ليلة وهنا يبلغ إحساسه الدرامي بمأساة الزمن ذروته، فالبقاء شيء ثمين لا يقدّر ولكنّه لا يزال ينقص، وما لا يزال ينقص لابدّ له من النفاد، والإنسان على ذلك رهن الموت مهما طال به الأجل.

وإيمان طرفة بزوال الحياة خلق لديه مضامين فكريّة أخرى تتعلّق ببعض القواعد السلوكية، والاعتبارات فهو يرى أنّ هذا الكون يخضع لقوانين جبرية صارمة، بل إنّ الإنسان في نظره خاضع لقوّة إلهية تتحكم فيه، فعليه إذن أن يعيش مستمتعاً بهذا الوجود في إقباله على اللذّة الدائمة طوال العمر، وهو تشبّث بالسعادة خوفاً من ضياعها، وهي صورة يائسة تجاه حتمية الموت، وتلك إحدى محاولات الهروب من فكرة الفناء الرّهيبة، أو فكرة الخلاص من الموت، وهو ما عبّر عنه بقوله:

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أيّنا الصّدى

أرى قبر نحّام بخيل بماله كقبر غويّ في البطالة مُفسد

ترى جثوين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفيح منضد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدّد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إنّ الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّوْل المرخى وثنياه باليد4

هكذا فهم الشاعر الحياة، لذّة، وشهوة، ونجدة، وشجاعة، وبطولة وإقداما، هكذا فهم الشاعر الحياة، كنزا ينقص كلّ يوم وليلة، وعمر الإنسان محدود جدّا، يقاس بأنفاسه وساعاته وأيامه ولياليه، ولا مفرّ من الموت، وأين المهرب من هذه الحقيقة الفاجعة..الموت، هذا الذي يختار كرام الناس وأراذلهم، لا يفرّق بين كبير وصغير وغنيّ، وفقير، وكريم وبخيل، كريم يروّي نفسه

في حياته، ويسرف بلا حدود وبخيل يضيّق على نفسه، ويتشدّد بلا حدود، من هنا كان لوم الشاعر للّذي لامه على إسرافه وبحدته، وشجاعته، وسرعة تهوّره، وخوضه غمار الموت، بل من هنا تحدّى الشاعر هذا اللاّئم أن يدفع عنه الموت، وأن يخلده مع الخالدين، وأين هم الخالدون؟ كلّ إلى الموت صائر، وكلّ إلى هذا المصير المفجع غاد، فلماذا إذن لا يشبع المرء نفسه من شهوات الدّنيا، ولذّات الحياة، ولماذا التردّد والتلجّج في ساحات الوغى، والجبن عن مواجهة الفرسان، ومنازلة الأبطال؟.

أخشية أن يصرع ويقتل، فماذا إن هو لم يقاتل ولم يصارع، هل يخلد ويسلم من الموت الذي هو يترصّده عند كلّ مرصد؟.

ثمّ ينظر الشاعر بعد ذلك إلى صروف الدّهر في إحساسه بالزّمان فيجده صائراً إلى الفناء يشبهه بكنزٍ ينقص كل ليلة إلى أن يفنى كالإنسان في حياته وموته نتيجة شعوره بالزمان. وكأنّه في نظرته هذه يعيش صراعاً مع الزمن في إحساسه بأنّ العمر فانٍ لا محالة، فحاول أن يحقّق لحياته كل ما تظفر به من متعٍ.

طرفة إذن يعلم أنّه ميّت مهما شرب، ولكنّه يريد أن يشرب قبل أن يموت، إنّ الموت ما كان ليثني طرفة عن الإقبال على الحياة، بقدر ما كان عاملاً مساعدا، وحجّة يتصدّى بها للذين يعاتبونه على الشّرب، يقول وهب رومية في ذلك: « والموت في نظر طرفة حقيقة مطلقة خالدة ولكنّها حقيقة لا تثير الخوف، ولا تدفع إلى الزّهد بل هي على العكس تثير نهم الشاعر، إلى الحياة– إلى اللذّة، ويرى في اللذّة نفسها بل في الإسراف فيها طريقة طيبة للموت»5.

هكذا يصف الشاعر مذهبه في الحياة، وهو مذهب يميل إلى اقتناص لذّة الحياة خوفا من ضياعها، ويأسا من دوامها، فلعلّ في تحقيق اللّذة انتصارا على الموت، لأنّ الموت كما تصوّره الجاهلي هو نهاية الوجود، والتوقّف عن ممارسة الحياة بكلّ متعتها « فإنّ الموقف الوجودي للشاعر الجاهلي إنّما يبرز عنيفا في تحدّيه للموت والفناء بالغوص عن لذائذها، لا حبّا في اللّذة بوصفها لذّة ولكن حبّا في الحياة وتعلّقا بها وكراهية في الفناء الذي تتوقّف به ممارسة هذه اللّذات»6.

ولا يبرح الموت يؤرّق الشاعر العربي القديم، يبحث له عن معادل موضوعي يقرب صورته وفعله، ويحاول فكّ لغز اختياره لضحاياه. أنّه لا يختار الشيخ الهرم ولا المريض المقعد، ولا الجريح المدنف.. بل يأخذ الصحيح والعليل، والشاب والكهل والفتى والعجوز.

وأخذه لا يخضع في عين الجاهلي لنظام ولا لمنطق. ولذلك وجدنا"طرفة بن العبد" يأخذ من واقعه صورة رمزية قوية الدلالة تؤكد على حقيقة الموت وأنّ العيش كنز مصيره إلى النفاذ، وأن أحداً لم يحظ بالخلود فالإنسان كأنّه في حبلٍ يرخيه له الموت، إذا شاء اجتذبه وثناه إليه، يقول طرفة في هذا المعنى:

لعمرك إنّ الموت ما أخطأ الفتى لكالطَوْل المرخى وثنياه باليد7

فصورة الطّول الذي يرخى للدّابة، حتى يسمح لها بالتنقّل سعيا وراء الكلأ، وهو مشدود إلى يد أو وتد، والطّول يستمد فاعليته من طّول حبله، ومن المراس الذي يشدّه وهي صورة تتكرّر يوميّا في حياة الأعراب. وصورة الدّابة نفسها التي لا تعبأ بطولها.

فإذا أحللنا الإنسان مكانها، كانت حقيقة عمره ومقداره كحقيقة الطّول وامتداده. يتناساه ولا يعبأ به، وهو في نقصان مستمرّ كلما تقدّم به الزمن، إلى أن يبلغ الطّول نهايته فيشدّه الموت.

إنّ الموت في مجاوزته للإنسان إنّما هو بمثابة حبل مطول للدّابة ترعى فيه، وطرفاه بيد صاحبه، فلا يمكن الخلاص منه بحال، فمتى شاء الموت قاد الفتى لهلاكه، ومن كان في حبل الموت انقاد لقوده بلا جدال.

تلك هي المأساة الشعورية التي يحاول الشاعر التغلّب عليها بالانغماس في اللّذة، لا هربا منها، ولكن مواجهة صريحة لها، فطرفة يكشف عن رؤية أكثر تقدّما لفلسفة الموت، فالشاعر بغض النظر عن تعبيره المباشر، قد أدرك كيف يعيش الإنسان في

قبضة الموت على الدّوام، أي أنّ الإنسان "يحيا موته" وأنّ النهاية بالنسبة إليه ليست بعيدة في حاضرة حياته ذاتها، لأنّه يدرك أنّه يقف في نقطة بين زمنين: زمن انقضى لا يملك من أمره شيئاً، وزمن قادم لا يعرف عنه شيئاً، وليس له إلاّ اللّحظة الشّاخصة يصنع فيها لنفسه ذِكرا، أو لذّة، أو يستكين فيدعها تفلت منه فارغة خاوية.

إنّها لحظة في مقدورها صنع غده، إن كان له غد! لذلك يقول:

فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيّتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي8

والمبادرة في هذا المقام، هي اهتبال اللحظة لما يريده الشاعر من نفسه ولها فالموت كما يعرضه في البيت السابق، إمّا أنّه يقتفي أثره، ويلاحقه في دروب الأيّام.

وإمّا أنّه يكمن له في شعب من شعابها ويترصّده. والصورة أكثر إلحاحا على الشاعر من غيرها لسبب بسيط يتجلى في أنّ العمر حسب رؤية الشاعر محصلة مجموع اللحظات التي اهتبلها الإنسان وصنع فيها لنفسه ذِكرا أو لذّة؛ أمّا التي انصرمت دون أن تعقب بين يديه شيئا، فهي ليست له.

فلطالما أحس الشاعر العربي منذ القديم أنّ الموت يُفسد عليه الحياة، فَروّعهُ هذا الإحساس وغَاله، وأنّ فراشة الحياة الآسِرة الألوان التي يطاردها ليمسك بها تحوم فوق رأسه قليلاً ثمّ تغيب، فكأنّ شيئاً من أمرها وأمره لم يكن، وبهجة الحياة التي يشعر بها الشاعر بهجة مُروّعة لأنّها مسكونة بهاجس الفناء القريب، فلا شيء أقسى من أن يحسّ

عاشق الحياة أنّ العمر آخذ في النفاذ، وأنّ النعيم طيْف كَرى يُخاتِله فإذا فتح عينيه ليحقّقه لم يجد سوى الصمت الحزين، فالحياة لهو ولعبٌ، إنّها تلهية يلهى بها الإنسان ريثما يُدركه الموت.

فهل كانت وظيفة هذا اللّهو أن تصرف الإنسان عن التفكير في مصيره؟ على كل حال إنّ الذين لم يصرفهم اللّهو واللّعب عن هذا التفكير، هم الذين أشقاهم الوعي وأضناهم التفكير في هذا المصير.

ترى كيف يكدّر التفكير في "المصير" صفو الحياة؟

أو نستغرب بعد ذلك أن يشعر الشاعر العربي بتفاهة الوجود الإنساني، وتلاشيه أمام الموت المدمّر؟.

«لعلّ أبسط شكل من أشكال التصوّر طاف في ذهن الشاعر الجاهلي وهو يُفكّر في الموت تصوّره أنّ الموت سفر ذو اتجاه واحد، بدايته معروفة، ونهايته مجهولة، إنّه سفر الرّوح إلى عالم غامض، وبقائها في مستقرّها البعيد عن الجسد وعن الأحياء، وإذا كانت البداوة قد فرضت على الحياة في العصر الجاهلي سفراً موصولاً بسفر، ورحلة تُفضي إلى أخرى، فإنّ الرّحلة الأخيرة لا سواها كانت تستوقف العقل وتحرّضه على التأمّل وتفضي به إلى الاستسلام. لأنّ الوقوف الطويل على باب الموت لم يُمكّنُ أحداً من رؤية ما وراءه. ففيم الإلحاح، والصدّ والردّ، وفيم المجادلة والدّار مغلقة؟ والإغلاق ينتهي إلى الإخفاق؟»9

وقد يخيّل إلى المرء أنّ سفره مؤجّل لا معجّل، وأنّه غير مقصود بنذر الموت الذي تحيط به من كل جانب، وأنّ الموت الذي أدرك غيره اليوم قد عفا عنه، وأنّ في الزمن فسحة، وهو في حقيقة الأمر غافل عن الحقيقة، لأنّ البعيد قد يقرب ولأنّ الحياة طوّقت الإنسان بحبل أوله في عنقه، وآخره في يد الموت.

والموت قادرا على شدّ الحبل، وخنق صاحبه في كلّ لحظة.

لقد كان همّ طرفة وليد أزمة الوجود البشري المرصود بالموت، فضخامة الموت وجبروته حقيقة ثابتة، وكلّ ما عدا ذلك شبح للحقيقة، وطريق إلى الموت، وقد ظهرت هذه الأفكار خلال وصفه لناقته يقول:

جماليّة وجناءَ تردي كأنّها سَفَنّجَةٌ تبري لأزْعَرَ أرْبَدِ

تَريعُ إلى صوت المهيب وتتّقي بذي خُصَلٍ رَوعات أكلفَ مُلبِدِ10

كان طرفة من خلال حديثه عن ناقته يتحدّث عن ذاته، ورغباته المكبوتة، وكانت الرغبة الملحّة عليه هي رغبة الوجود فكلّ مغامرات الإنسان ليست — في أقصى غاياتها- إلاّ طريق لتحقيق وجوده، ومن ثمّ كان حريصاً على إدراك معنى هذا الوجود، وقد أخذت هذه المغامرات أشكالاً مختلفة، فهي تتمثل مرّة في البحث عمّا نسمّيه الحقيقة والأخرى في البحث عن الله، وثالثة في محاولة تفهّم النفس.

فهو في وصفه لناقته يتحدّث عن تصوّراته، وأفكاره الداخلية، حيث يصف ناقته بأوصاف يتجلّى فيها الجمل، والنّعامة، والأرض الصلبة، والصخرة، والكهف، وغيرها من الأشياء التي يحاول بها أن يقيم الوجود لتستمرّ الحياة به، ولا شكّ أنه كان يعبّر عن ضمير الجماعة من خلال ضمير الفرد.

فقد كان طرفة يحرص على التمسّك بالقوة، حتى لا تؤثّر فيه العوادي، لكن الضّعف كان يتخلّل حياته، والموت يوجد في صميم كينونته. وقد رأينا كيف أنّ الطّلل بأحجاره وأثافيه قد تغيّر وأصبح لا يُعرف، وذلك ما أثّر على الشاعر كثيراً ومن ثمّة فقد امتطى ناقته القويّة السّريعة، التي أحسن في وصفها حين قال عنها إنّها عوجاء مرقال، ولكن القوّة يتخلّلها الضعف، ويتهدّدها الموت، ولذلك نجد طرفة ما إن يصف ناقته القويّة حتى يتذكّر الموت، فيقول عنها:

أمُونٍ كألوَاحِ الإرَانِ نصَأتُها على لاحِبٍ كأنّهُ ظهرُ بُرجُدِ11

يعلق مصطفى ناصف حول هذا البيت بقوله: « أنّ طرفة ناقته موثقة الخلق ولكن كيف صوّر طرفة هذا الجانب؟ لقد قال إنّها تشبه ألواح تابوت الموتى، ثم قال بعد ذلك إنّني زجرتها من أجل أن تسير في طريق يشبه الثوب المخطّط. والحقيقة أنّنا إذا نظرنا مليّاً في هذه الصورة وجدنا الشاعر قد عبث بفكرة القوّة من طرف خفيّ، الناقة تحمل صاحبها كما يستوعب التابوت الميّت. الناقة من هذه الوجهة ليست هي الإنسان الذي يريد أن يبتغي لنفسه القوّة والسلامة، ولكنها أيضاً حياة أخرى معدّة للعبث بحياة الإنسان نفسه»12.

إنّ توظيف الناقة عند طرفة ووصفه لها مغايراً تماماً لما هو معهود عند غيره من الشعراء، ولعلّ أهمّ ما يمكن ملاحظته هو أنّه اهتمّ بوصف ناقته أكثر من اهتمامه بوصف حبيبته، كما أنّ وصفه لناقته لم يكن وصفاً تقريريّاً، وإنّما كان نتيجة معاناته من الهموم التي شغلته، وبالتالي فإنّ الناقة في هذه الحالة هي الجسر الذي يفصل الشاعر بين مقدّمة القصيدة، ورحلته عليها، فقد جاء وصفه للناقة مباشرة بعد صورة الطّلل أي بعد أن ضاق ذرعاً من التفكير في محاورة الحياة، حيث حاول أن يتغلّب على الحياة، أو على الأقلّ التغلّب على مشاعره الأليمة، وعذابه النفسي الذي يعانيه من هذه الحياة، فلم يجد بديلا غير هذه الناقة التي وجد فيها إشباعه الحقيقي لحاجته إلى الطمأنينة التي ظلّ ينشدها.

ففي مقدّمة معلّقته التي جاءت في ثلاثة مشاهد: مشهد الأطلال، ومشهد الرّحيل ومشهد الحياة التي كانت تعمر المكان والتي كانت مرتّبة ترتيباً عكسيّاً فهي تبدأ بالنهاية وتنتهي بالبداية.

وهي تطرح لنا قضيّة الحياة والموت التي شغلت طرفة وملكت عليه فكره، فبيّنت هذه المشاهد كيف تنتهي الحياة إلى عدم، وكيف أنّ الزّمن هو آلة العدم التي تستنفذ الحياة.

وإذا كان الزّمن في جوهره حركة، فقد عبّر طرفة عن هذه الحركة بمشهد الرّحيل.

وكأنّ مشهد الرّحيل كان معادلاً لرحيل آخر أعمّ وأشمل في ذهن طرفة وهو رحيل الإنسان من الحياة، يمضي بها وكأنّه يقتحم بحراً متلاطم الأمواج يجور فيه حيناً ويهتدي حيناً آخر، ودليل ذلك قوله:

كأنّ حدوج المالكيّة غُدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

عَدَوْليّةأومن سفين ابن يامن يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

يشق حباب الماء حيزومُها بها كما قسم التُّربَ المفايل باليد13

فمن هنا نفهم ما الذي لفت نظر الشاعر طرفة إلى لعبة المفايلة فشبّه بها حركة الإبل في اقتحامها الصحراء «والمفايلة كانت لعبة يلعب بها الصبيان فيكوّمون تراباً ويضع المفايل فيه خبيّاً ثم يشقّ كومة التراب بيده فيقسمها قسمين ثمّ يقول لصحبه: في أي الجانبين خبّأت؟ فإن أصاب صاحبه خطر وإن أخطأ خسر»14.

ولعلّ هذه اللعبة أصدق تمثيل لرحلة الإنسان في الحياة، فالإنسان يمضي فيها وهولا يدري أهو في الاتجاه الصحيح، أم في الاتجاه الخاطئ، ولا يدري في أي الجانبين يكون نجاحه وفي أيّهما يكون الخسران.

وعلى هذا فمقدمة معلّقة طرفة لا تنفصل عن موضوعها، فهي تدور حول الموت، هذه القضية الكبرى التي أرّقته وشغلته وملأت عقله.

إنّ تصوّر الفناء، والخلود لا يعنينا لذاته، وإنّما يعنينا منه تأثيره في سلوك الشاعر طرفة، وما يتّبعه من تصوّر للخير، والشر، وما يرافقه من إقباله على الشهوات أو انصرافه عنها، فإذا استطعنا أن نستخلص من شعر طرفة تصوّراً للموت برسم متقارب السّمات والقسمات، فإن الظفر بمثل هذا التصوّر للحياة مطلب عسير المنال وليس غريبا على طرفة بن العبد أن يتأمّل الموت، وهو في حساسية شاعر، فلقد نشأ طرفة يتيما« أي أنّه فجع بفاجعة الموت، وهو حدث فساء ظنّه بحكمة الحياة والموت، وأنّ فكرة الموت ولجت إلى ضميره بعقدة العدم والعبث واللاّجدوى»15.

وإذا كانت الحياة – مهما تَطُل– وهماً كبيراً، فإنّ نعيمها أوهام صغيرة، وإنّ لذّاتها ظلال راحلة، فإن لم ترحل اللّذات عن الإنسان رحل عنها الإنسان، وما يسلُبه

المرء اليوم تنتزعه منه المنيّة غدا، ففيم التعلّق ببرقها الخُلّب وسرابها الخدّاع؟.

فقد لاحظ طرفة أنّ قبور الناس تتماثل بعد الموت، فلا فرق بين قبر الكريم، وقبر البخيل مادام الموت نهاية الرّحلة، ولما كان الأمر كذلك فلماذا يبخل الإنسان؟ ولماذا لا يستمتع بلذائذ الحياة ؟

فهو لم ينكر أنّ الموت يساوي بين الناس جميعاً، وأنّ أزهد الناس وأبخلهم قد يُدفن في قبر يشبه قبر أكثرهم سرفاً وترفاً، وأنّ الحياة مع مرور الزمن تأكل عمر الإنسان حتى تُفنيه، يقول:

أرى قبرَ نحّام بخيل بماله كقبر نحويّ في البطالة مفسد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلة وما تنقص الأيّام والدّهر ينفدِ16

إنّ هناك علاقة بين الحياة والزمن والموت، فالحياة لدى طرفة تمثّل كنزاً ويمثّل الكنز قيمة كبرى تعتريها حوادث الزمان بالنقصان، وكلّما مرّ يوم فقد الكنز قسما منه حتى يفنى، ولذا فإنّ حركة الزّمن تعبث بالحياة، وتحيلها إلى فناء، وهذا الإحساس بالضياع والفقدان الذي يفعله الزّمن يدفع إلى استغلال الكنز قبل أن يفنى من أيدي الناس، إذ ليس الزمن إلاّ طريقا تقود إلى الموت، فالقلق إزاء الموت وخوفه من نهايته المحتومة دفعه إلى اللّهو، والعبث.

ممّا جعل الناقد إيليا حاوي يقر بأنّ أسى الشاعر« ميتافيزيقي فلسفي.. فليس ثمّة شيء ذا قيمة ما دام الموت يحيله، ولقد تردّدت فكرة الموت في معلّقته جميعا حتى يخيّل إلينا أنّه كان يتراءى له أبدا في قعر الكأس وأنّه لم يكن يدمن على شرب الخمرة إلاّ للتهرّب من مواجهة جمجمة العدم»17.

ويبدو أنّ دافع الموت كان يفيض من ثنايا ثالوثه المقدّس: الخمرة، والجنس والفروسية.

« إنّ حكمته التي لأبستهَا الغريزة لم تمل عليه الزّهادة، بل دفعته إلى اغتنام الفرص قبل انقضائها، وإلى اقتطاف ثمار الحياة قبل ذبولها، ورأى أن يرتوي من دم الزقّ قبل أن ترتوي الأرض من دمه»18. حيث يقول:

كريم يُروّي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غداً أيُّناالصّدي19

إن الموت فجّر عُرام الحياة في قلب شاب كطرفة، إذ يذهب إلى الحانوت ليغرق نفسه في الخمر، وليحول ماله إلى لذائد ومباهج قبل أن ينزع الموت منه ماله أو ينتزعه من المال.

وإيمان طرفة بزوال الحياة خلق لديه مضامين فكريّة أخرى تتعلّق ببعض القواعد السلوكية والاعتبارات بشأن العلاقات يتضح هذا في قوله:

أرى الموت يَعتامُ الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدّد20

في ضوء هذا البيت يوضح لنا الشاعر« موقفه في كونه كريماً يروي نفسه بإقباله على الحياة وملذّاتها حتى يموت ريّان، بينما يموت عاذله عطشان، ولا فرق بين من كان يحرص على جمع المال، ولا من ينفقه، وبين الضّال في بطالته المفسد بماله فكِلاهما يشبه الآخر، لأنّ مصيرهما واحد»21.

فالموت يختار ويصطفي كريمة مال المتشدّد المبالغ في الحرص على إبقاء ماله، والمحافظة عليه محافظة شديدة، والذي ستكون نهايته كنهاية الغويّ المفسد والمتصرّف في ماله.

وإذا حاولنا التأكّد من العمر– بحسب هذه الرؤية– تبيّن لنا أنّ العمر هو مجموع اللحظات التي قطعها الإنسان وصنع فيها لنفسه ذِكرا أو لذّة. أمّا التي انصرمت دون أن تعقب بين يديه شيئا فهي ليست له، بل في نفسه من انقضائها حسرات وخيبات، يقابل بينها وبين تلك التي نال منها لّذة، فلا يجدها إلاّ سويعات قليلة لا تشكّل إلاّ شطراً يسيراً من عمره كلّه، تلك هي مرارة الخيبة في شعر طرفة، وذلك هو مبعث التكالب على الشرب وطلب اللّذة.

ونوع آخر اتّخذه وسيلة للخلاص من الموت، وهو الكرم وقرى الأضياف معوّضا بذلك عجزه عن دفع الموت، لذلك ينفي عن نفسه سكن الأماكن النائية مخافة حلول الأضياف به، يقول:

ولست بحلاّل التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القومُ أرفد22

وينادم الأغنياء من أجل إعانة الفقراء، يقول:

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطّرافِ الممدّد23

هذه هي نظرة طرفة للمصير وهكذا كان ينظر إلى الوجود على أنّه وجود وقتي، مدركاً تقلّب الدّهر في هذه الحياة القاسية الجافة التي تعوق انطلاقه، لم يجد سوى أن يتحدّى هذا الدّهر الزائل بملاذ الحياة، لكنّها لذّة مقرونة بعذاب وقلق، عذابه من الحياة القاسية وقلقه من مصيره المحتوم.

وقد حاول طرفة بن العبد أن يتجاوز الموت، ويتخطّاه لكي يذكر اسمه بعد وفاته عن طريق هذا الشعر الذي ضمنّه مُثُله العليا وأخلاقه الرّفيعة التي لا يكاد الموت أن يفنيها، بل إنّ ذلك هو المخرج الذي يمكن بواسطته التغلّب على الموت، ولذلك يرى أنه يستحق البقاء والخلود ويستحق الإشادة، لأنّ الموقف الوجودي عنده واضح، ولذلك فهو يستعدّ وهو بعد في سنّ الشباب للقاء الموت في شجاعة حزينة، فيقول عن نفسه:

فإن مُتُّ فانعيني بما أنا أهلُه وشُقّي عليّ الجيب ياابنةَ معبدِ

ولا تجعليني كامرئٍ ليس هَمُّه كهمّي ولا يُغني غنائي ومَشهدي24

فهو يطلب من ابنة أخيه الثّناء عليه والبكاء عند موته، وألاّ تسوّي بينه وبين رجل ليس همّه طلب المعالي مثل همّ الشاعر، ولا يكفي في الملمّات كفايته، فلا يشهد الوقائع مثله؛ وهو في كلّ ذلك واضح الغاية بيّن الهدف.

والحقيقة أنّ أبيات طرفة هذه، تثير الاهتمام، لأن الشاعر لم يعمّر طويلا، فقد مات في سنّ الشباب، ومع ذلك نجده يطرق مثل هذا الموضوع ممّا يجعل الأمر لا يتوقف عند هذه المسألة باعتبارها ظاهرة فنيّة، أو طبيعية فحسب بل إنّها تدخل في أساسيات تفكير الجاهلي وفلسفته

قائمة المراجع

[1] – عمر الطالب. امرؤ القيس ورحلة الحياة والموت. مجلة الثقافة العربية، ع 9، سبتمبر 1977. ص: 16

[2] – محمد النويهي.الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه. ج 1.الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة.ص: 419

[3] – طرفة بن العبد. الديوان ص: 26

[4] – السابق. ص: 26

[5] – وهب رومية. الرحلة في القصيدة الجاهلية. ط2. مؤسسة الرسالة، 1979. ص: 295

[6] – عفت الشرقاوي. دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي. ص: 287

[7] – طرفة بن العبد. الديوان. ص: 26

[8] – السابق. ص: 25

[9] – غازي طليمات، عرفان الأشقر . الأدب الجاهلي: قضاياه أغراضه أعلامه فنونه. ط1. دار الفكر سوريا، 2002. ص: 262

[10] – طرفة بن العبد. الديوان. ص: 20-21

[11] – السابق. ص: 20

[12] – مصطفى ناصف. دراسة الأدب العربي. ص: 248

[13] – طرفة بن العبد. الديوان. ص: 19

[14] – فوزي أمين. الشعر الجاهلي، دراسات ونصوص. دار المعرفة الجامعيّة، 2004. ص: 331

[15] – إيليا حاوي. في النقد والأدب. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979. ص: 237

[16] – طرفة بن العبد. الديوان. ص 26

[17] – إيليا حاوي. في النقد والأدب. ص: 57

[18] – غازي طليمات، عرفان الأشقر.الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه. ص: 267

[19] – طرفة بن العبد. الديوان. ص: 26

[20] – نفسه. ص: 26

[21] – عبد القادر فيدوح.القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد. ص: 41

[22] – طرفة بن العبد. الديوان. ص: 24

[23] – نفسه. ص:25

[24] – السابق. ص: 29